دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
ISSN 1813-7733
المجلد الحادي عشر ديسمبر ٢٠١٥م (ص ٤٥-٦٠)

حسان بن ثابت الأنصاري وقضية ضعف شعره في الإسلام

د. محمد رشيد زاهد *

ملخص البحث : هذا موضوع مهم جدا حول الشاعر العبقري الإسلامي وشاعر النبوة "حسان بن ثابت الأنصاري وقضية ضعف شعره في الإسلام" تناول الباحث أولا : حياته ونشأته بإيجاز. ثم علاقته بالرسول – صلى الله عليه وسلم – و دفاعه عنه و عن الإسلام، ومكانته و عبقريته في الشعر. ثانيا : ناقش قضية ضعف شعره في الإسلام مناقشة علمية مع إبداء رأيه وترجيح الرأي الراجح في تلك القضية الحساسة المثارة. فخلاصة المقال:

بأن حسان بن ثابت نشأ في قوم أعرق في الشعر و الشاعرية. وأ نه فحل من فحول الشعراء. وأشعر أهل المدر في عصره. والشعرفي صدر الإسلام لم يتوقف. والشعراء في الإسلام لم يسكتوا عنه. ولم يكن حسان ضعيف الشعر في الجاهلية. والشعر العربي لم يضعف قبل الإسلام. وشعره في الإسلام لا يقل في جزالته عن شعره في الجاهلية.وقضية ضعف شعره ليست على عمومها. بل الحق أن شعره في الإسلام كثر فيه الوضع. هذا هو السبب فيما يشيع بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة لا لأن شعره لان أو ضعف في الإسلام. بعدما أسلم حسان يتجافى عن جفوة الأعراب وخشونة الجاهلية. وعن الغلو والتطرف والزخرف والكذب هذا ما كان من حسان في شعره بعد إسلامه. وهذا هوما يسميه الأصمعي وغيره لينا وضعفا وما هو في الحقيقة بالضعيف.

التمهيد :

من الحقائق الناصعة أن شعراء القبائل في الجزيرة العربية ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا في دين الإسلام الحنيف، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم فماتوا قبل إسلامهم، وحري بهؤلاء أن يدخلوا في غمار الجاهلين، ومعروف أن قريشا حاربت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين بعث مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة. وسرعان ما نشبت بين البلدتين معركة حامية الوطيس، وبمجرد ان اشتبكت السيوف، أخذ الشعراء في الجانبين المتناقضين يسلون ألسنتهم دفاعا عن كل منها، وهجاء للآخر، إلا أن بعض النقاد والباحثين

---

* أستاذ مشارك لقسم علوم القرآن و الدراسات الإسلامية. الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ.

أشاعوا فكرة ضعف الشعر العربي بعد الإسلام، ومنها قضية ضعف شعر حسان بن ثابت الأنصاري في الإسلام، ويعللون بأن قضية ضعف الشعر بعد الإسلام لإنصراف الشعراء عن قوله، وبعد الناس عن الاهتمام به منذ أن نزلت الآية الكريمة : (الشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهمون، وأنهم يقولون ما لايفعلون) [الشعراء:٢٢٤-٢٢٦]وأيضا يبررون بأن معاني الإسلام تطرقت إلى الشعر في موضوعاته وألفاظه، فأصبح يغاير الصورة الجاهلية التي عرف بها، وأول ما نلحظه في ذلك أن الجزالة البدوية القديمة التي كانت صفة غالبة على الشعر الجاهلي كادت تذوي تماما لتحل محلها بساطة في الأسلوب والألفاظ الرقيقة ، لأن الشعر انتقل من البادية إلى المدنية، ولقد كانت الأشعار الجاهلية الجزلة تمثل عند العرب النموذج الكامل للشعر العربي، ويقولون أيضا : إن بعض الشعراء قد شغلوا عن الشعر بالجهاد في سبيل الله، وأن النبي — صلى الله عليه وسلم — يشجع الشعر الجيد الذي تظهر فيه المثل العليا جلية واضحة، وكان يستمع إلى ذلك الشعر ويعجب بحكمه وأمثاله.

ففي هذا البحث نحاول معالجة هذه القضية بإتيان آراء الناقدين والباحثين في هذا المجال، وترجيح الراجح من الآراء الواردة فيها، وقبل الخوض في صلب الموضوع نأتي بإيجاز عن حياته ونشأته ومايتعلق به.

نشأته وحياته:

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصاري شاعر الإسلام وشاعر رسول الله– صلى الله عليه وسلم ـ ويكنى حسان أبا الوليد، وأبا عبد الرحمن، وأبا الحسام، وأمه الفريعة بنت خالد بن قيس. ولد في المدينة قبل مولد الرسول — صلى الله عليه وسلم — بنحو ثمانية سنين. وقد أسلمت الفريعة ودخلت في دين الله.

وأصفق القوم على أن حسان عاش مائة وعشرين سنة، ستون في الجاهلية، وستون في الإسلام، وينتمي إلى بني نجار من قبيلة الخزرج، وكان الخزرج وإخوتهم الأوس يقطنون يثرب " المدينة" وهم الذين لقبوا فيما بعد ـ بعد أن بايعوا سيدنا رسول الله على نصرتهـ بالأنصار، إذن يكون حسان من أهل المدر أي : سكان القرى والأمصار لا من أهل الوبر أي : الأخبية والخيام، ومن ثم قولهم : أنه أشعر أهل المدر .[١]

لما هاجر رسول الله إلى المدينة أسلم حسان مع الأنصار وانقطع إلى مدحه والنضح عنه، وذلك أن الرسول حينما اشتد عليه أذى قريش بالهجاء قال لأصحابه : ما يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان : أنا لها. وضرب بلسانه الطويل أرنبة أنفه وقال: والله ما يسرني به مقول ما بين بصرى وصنعاء! والله لو وضعته على صخر لفلقه أو على شعر لحلقه! فقال له النبي– صلى الله عليه وسلم ـ : كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال : أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين.فقال أهجهم ومعك روح القدس. فهجاهم فآلمهم وأبكمهم ووقعت كلماته منهم موقع السهام في غسق الظلام. فاشتهر بذلك ذكره، وارتفع قدره. وعاش ما عاش موفور الكرامة مكفي الحاجة من بيت المال. حتى توفى سنة ٥٤ للهجرة بالغا من العمر مائة وعشرين سنة. وقد كف بصره في أعقاب أيامه.[٢]

وكان بين الأوس والخزرج سلسلة حروب تكاد تكون متصلة الحلقات ، وقد شاهد هذه الحروب في الجاهلية ثم شاهد المشاهد كلها في الإسلام ، ومع ذلك كله لم يخترط سيفا وما شاك سلاحا، وإنما سيفه الصمصامة الذكر لسانه، ومذوداه قلبه وبيانه. هذا هو كل ما يملك حسان وهذا كل ما كان منه وسط هذه المعامع والوقائع والحروب قافية ينتصر فيها لقومه . ويفتخر بمساعيهم وفعالهم أو قصيدة ينافخ فيها عن السيد الأمين ، ويذب عن بيضة الإسلام ، ويشهر فيها بقريش وسادة قريش وشعراء قريش. إذن كان حسان جبانا بحق. بل كان الجبن ماثلا، وليس ذلك مما يعاب به حسب وإنما كان من أولئك الذين يكتسبون بشعرهم . أما جبنه فقد علمت أنه لم يخض حربا قط.... [٣]

علاقته بالرسول– صلى الله عليه وسلم – ودفاعه عنه :

إن حسان بن ثابت الأنصاري ليس خزرجيا فحسب ، بل هوأيضا من بني نجارأخوال رسول الله –صلى الله عليه وسلم – فله به علاقة قوية وصلة قرابة و رحم . فلما هاجر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة دخل حسان في الإسلام . حتى إذا أخذ شعراء قريش في هجاء الرسول وصحابته .

انبرى لهم بلاذع هجائه، وكان رسول الله يحثه على ذلك و يدعو له بمثل : "اللهم أيده بروح القدس " واستمع إلى بعض هجائه لهم فقال :" لهذا أشد عليهم من وقع النبل " وفي حديث عنه –صلى الله غليه وسلم – أنه قال : "أمرت عبد الله بن رواحة (بهجاء قريش) فقال

وأحسن. وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى " وأنه لم يكن يهجو قريشا بالكفر و عبادة الأوثان، إنما كان يهجوهم بالأيام التي هزموا فيها ويعيرهم بالمثالب والأنساب وهذا طبيعي ؛ لأنهم كانوا مشركين فعلا .فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغا . ويروى أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال له : " اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهجوهم وجبريل معك "[٤] ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض في حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – و نراه يعلن براءته من هذاالقول الآثم بأشعار يمدحها مدحا رائعا من مثله :

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فإن كان ما قد قيل عني قلته فلا رفعت سوطي إلي أنامل

على أنه مضى في نفس القصيدة يعلن إخلاصه للإسلام وأنه سيستمر في ذبه عن الرسول –صلى الله عليه وسلم – ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره في المسجد، والذي لا شك فيه أنه كان يحظى منه بمنزلة رفيعة، حتى ليروى أنه كان يرفع أزواجه إلى أطمه حين يخرج لحرب أعدائه، وكان حين يعود يقسم له في الغنائم، وقد أهداه بستانا. كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية، وهي أم ابنه عبدالرحمن . وكان الخلفاء الراشدون يجدونه ويفرضون له في العطاء. و بحق سمي حسان شاعر الإسلام الأول وشاعر رسوله الكريم. فقد عاش يناضل عنه وعن أعداء الإسلام من قريش واليهود و مشركي العرب راميا لهم بسهام مصمية . [٥]

مكانته وعبقريته في الشعر :

إن حسان بن ثابت الأنصاري من فحول الشعراء وعباقرها ، فكان في الجاهلية شاعر أهل المدن، وفي البعثة شاعر النبوة ، وفي الإسلام شاعر اليمانية ، قال في المدح والفخر، والحماسة والهجاء، وفي الغزل في الجاهلية، أما في الإسلام فاقتصر على المدح والهجاء والفخر ، كما يمدح سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن يرتضيه من الصحابة مثل الصديق ، والفاروق، وابن عباس، وابن الزبيربن العوام، وكان يهجو قريشا وشعراء قريش ذودا عن سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه سلمـ وعن بيضة الإسلام ، وما زال إلى أن استأثر برحمة الله ...[٦]

قال أبو عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاث ، كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام. وقال : اجتمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر.[٧]

وقال الحطيئة : أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب، حيث يقول :

يغشون حتى ما تهر كلا بهم لا يسألون عن السواد المقبل

وقال عمرو بن العلاء : حسان أشعر أهل الحضر ، وقال أبو الفرج الأصفهاني : حسان فحل من فحول الشعراء .

وقد سمع النابغة الذبياني شعر حسان فقال له : إنك لشاعر. وكان الأعشى صديقه وشهد له بالشاعرية. فهذه آراء أئمة اللغة وآراء ثلاثة من فحول الشعراء في حسان وشعره.[٨]

ومن المحقق أنه كان شاعرا بارعا، وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر في عصره، وأنه أشعر اليمن قاطبة ، وقد خلف ديوانا ضخما رواه ابن حبيب، غير أن كثيرا من الشعر المصنوع دخله ، يقول الأصمعي: تنسب إليه أشياء لا تصح عنه.[٩]

أما قضية حسان أنه من فحول الشعراء لا يتمارى فيه شاعرولايختلف فيها اثنان، وأنت فمن أي النواحي أتيته وجدته شاعرا كشاعر الجاهلية الفحول .أما من جهة الطبع فحسان شاعر مطبوع. ولا أدل على ذلك من أنه معرق له في الشعر ، فأبوه شاعر، وجده شاعر، وأبو جده شاعر كما أن ابنه شاعر وحفيده شاعر أيضا.

وحسان منهم واسطة القلادة وبيت القصيد، وأما من جهة أغراض الشعر التي جال فيها فقد مدح وهجا وافتخر وشبب ورثى ووصف، وهام في كل واد وتصرف في سائر فنون الشعر ولم يقصر.أما من ناحية الديباجة، فديباجته ديباجة عصره، وأسلوبه أسلوب فحول شعراء الجاهلية والمخضرمين وإن كان الحطيئة ـ وهو مثل حسان مخضرم يفوقه في جزالة اللفظ وفخامته وفي نقاء الديباجة وصفائها. لأن الحطيئة كزهير معدود في عبيد الشعر الذين تأنوا فيه وتنوقوا ونقحوا حتى أثر عنه قوله خير الشعر الحولي المنقح المحك ، وأين هذا من حسان الذي كان يرتجل الشعر ارتجالا ، وقد قال على البديهة هذه الأبيات حين دعاه سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقاول وفد بني تميم وهى أبيات حسنة جيدة:

هل المجد إلا السود العود والندى وجاه الملوك واحتمال العظائم

انظرها في قافية الميم . وكذلك ارتجل هذه الأبيات وهي أجود من سابقتها

إنالذوائب من فهر وأخوتهم قدبينوا سنة للناس تتبع[١٠]

ثم لا تنسى الدين وأثره في نفسه وخلاطه للسيد الأمين وسماعه القرآن الكريم مما أسكت مثل لبيد ، وأفحمه حتى أصفى ولم يقل شعرا قط بعد إسلامه، وقال: في سورة البقرة وآل عمران غناء عن الشعر، ولكن حسان سلسبيل شعر فياض، سريع الخاطر، عمر البديهة، خصب الذهن، لم تنضب قريحته حتى جاور ربه... [١١]

قيمة شعر حسان بن ثابت :

شعر حسان بن ثابت طبع مندفع. وقريحة هائجة، ومن جوانب قيمة شعره :

١- القيمة الفنية :

حسان بن ثابت شاعر شديد التأثر، قوي العاطفة، ويفوقه التأني ؛ ولهذا ترى شعره يتدفع تدفعا، متتبعا في ذلك الطبع والفطرة لا الصنعة والتملق، ومن ثم تلقى شعره خاليا من كل يتطلب النظر الهادئ المتفحص، فمطالعه مقتضبة اقتضابا شديدا يسرع في الانتقال منها إلى موضوعه الذي تحتدم به نفسه وانتقاله غير بارع عادة، ولانصراف الشاعر إلى الارتجال والسرعة في القول والتدقيق الموضوعي بذكر الغزوات وأربابها، وقد يكون بعض ذلك الضعف ناتجا عما أضيف إلى ديوان حسان بن ثابت من الشعر المنحول، ويخلو شعره من الوصف والتمثيل الذين كانا في الشعر الجاهلي عموما إلا أنه لايخلو على كل حال من الاندفاع العاطفي العنيف والصدق في ذلك الاندفاع. وانتفاض العصب في الأبيات التي تنطلق أحيانا كالسهام أو كالسيل الذي يجرف السخط والهيجان، والكلام المبدع الذي يهشم تهشيما، وإننا نلمس في كلام حسان أثرا للدين الجديد والقرآن، وذلك ظاهر في المعاني الجديدة من ارتياح إلى المصير، وتفصيل بعض العقائد والشعائر من توحيد وتنزيه وثواب وعقاب، وذلك ظاهر أيضا في الألفاظ التي أعطاها الإسلام إيحاء جديدا، ونشرها حسان في شعره، ولقد حق بعد ذلك أن يقال أن حسان هو مؤسس الشعر الديني في الإسلام.

٢- القيمة التاريخية :

لشعر حسان فضلا عن القيمة الفنية قيمة تاريخية كبرى، فهو مصدر من مصادر تاريخ تلك الأيام، ويسجل مآثر الغساسنة ويصف غزواتهم وممتلكاتهم، ويسجل أحداث الفجر الإسلامي، ويطلعنا على أخبار محمد – صلى الله عليه وسلم – في غزواته وفتوحاته وفتح مكة، كما يطلعنا على أسماء الصحابة وأعداء الإسلام، وهكذا كان حسان بن ثابت شاعرا ومؤرخا كما كان شعره فاتحة للشعر السياسي الذي ازدهر في عهد بني أمية.

نماذج شعر حسان بن ثابت :

لحسان بن ثابت لاميته التي يمدح بها الغساسنة بمثل قوله :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول[12]

وقصيدته الهمزية التي يقول فيها لأبي سفيان الحارث :

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء
فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء[13]

مرثيته البديعة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – التي رواها أبو زيد الأنصاري :

مابال عينك لاتنام كأنما كحلت مآقيها بكحل الأرمد[14]

ورثاؤه لعمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حين توفي إثر طعنه فيروز أبو لؤلؤة المجوسي :

وفجعنا فيروز لادر دره بأبيض يتلو المحكمات منيب[15]

إن من يتعمق في ديوان حسان بن ثابت يجد أن فحولة شعره لم تفارقه في جاهليته وإسلامه، وفي فخامته وعذوبته، ولاشك في أن ما يظهر من ضعف وفي بعض إسلامياته ليس أصيلا في فنه، وإنما هو عارض، ساقته ظروف طارئة أو منحول دس عليه لغرض ديني أو فكاهي، فلقد كان حسان بن ثابت رمزا من رموز المدافعين عن حياض الإسلام والمسلمين، فلقد سخر هجاءه في ذم أعداء النبي – صلى الله عليه وسلم –، ولقد مضى مفتخرا بالنبي – صلى الله عليه وسلم – وأتباعه المؤمنين وإخوانه الأنصار.

قضية ضعف شعر حسان في الإسلام :

لم يكن حسان كغيره من شعراء الجاهلية الذين جابوا الجزيرة العربية وأطرافها متعلين مأوى النفوذ والجاه، ولكنه في مقابل ذلك كان يتمتع بقدر كبير من الرقة والسلامة. وبعد قبول الإسلام تغيرت حياته، وتبدلت أساليب شعره. فقد صارت خالية من الحوشية والأخيلة البدوية، ولكن خالطها لين الحضارة، وغلبت في أساليبه الشعرية كتوليد المعاني من عقائد الدين الجديد وأحداثه. والاستعانة بصيغ القرآن وتشبيهاته. ولطف كناياته وضروب أمثاله. واقتباس الألفاظ الإسلامية من الكتاب والسنة وشعائر الدين ؛ لذلك أتى بعض النقاد بقضية ضعف شعره. لعل أول من أثار هذه القضية أي : قضية ضعف شعر حسان في الإسلام هو عبد الملك بن قريب الأصمعي المتوفى سنة ٢١٥هـ . فقد أثر عنه أنه قال: الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل في الخير ضعف هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره.[١٦]

وروى المرزباني هذا القول مع زيادة حيث ذكر أن الأصمعي قال : طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان. ألا ترى حسان بن ثابت علا في الجاهلية والإسلام فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحمزة وجعفر وغيرهم ، لان شعره وطريق الشعر هي طريق الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحلة والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والافتخار ، فإذا أدخلته في الخير لان. [١٧]

وروى له أيضا أنه قال : حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء ، فقال له تلميذه أبو حاتم: تأتي له أشعار لينة. فقال الأصمعي : تنسب له أشياء لا تصح عنه. [١٨]

وبهذا الصدد لم أجد ـ فيما وقفت عليه ـ سوى أقوال الأصمعي المنثورة بين الكتب ، وذلك باستثناء ابن خلدون الذي ذهب إلى توقف الشعر أول الإسلام حيث قال : انصرف العرب عن الشعر في أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي. وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرجوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا ثم استقر ذلك ، ووأنس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وخطره ، وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم ـ وأثاب عليه فرجعوا إلى ديدنهم منه . [١٩]

ومن البديهي أن قول ابن خلدون هذا لا يتلاءم والكثرة الكاثرة من الشعر التي نجدها في دواوين الشعراء الذين واكبوا أول الإسلام وفي كتب السير والأخبار التي سجلت أحداث الإسلام الأولى وما قيل فيها من أشعار.

أما أقوال الأصمعي المذكورة فنستطيع أن نستخرج منه شيئين أحدهما: أنه يرجع ضعف الشعر في الطور الأول من الإسلام إلى الأغراض ذاتها ، فالأغراض التي نظم فيها المخضرمون أشعارهم بعد الإسلام والمعاني التي تناولوها في هذه الأغراض هى التي أدت إلى ضعف شعرهم في الإسلام. والآخر خاص بحسان بن ثابت وهو أن جملة من الشعر الركيك المسف الذي ينسب إلى حسان ليست له وإنما هى منحولة عليه .

موقف الباحثين المعاصرين من شعر حسان:

وإذا كان الذين جاءوا بعد الأصمعي من القدماء قد وقفوا من قضية ضعف الشعر في صدر الإسلام موقف الأصمعي حيث رددوا أقواله في هذا الخصوص، فإن الباحثين المعاصرين الذين قالوا بضعف الشعر في صدر الإسلام قد داروا في فلك هذه الأقوال ، فكما جعل الأصمعي حسان بن ثابت نموذجا لحديثه عن ضعف الشعر ذي المعاني ، جعل المعاصرون حسانا نموذجا أيضا، وأخذوا يؤكدون ما قاله الأصمعي ترديدا أو ضمنا. وهاك مجمل آراء بعض الأدباء المعاصرين في هذا الصدد :

١- رأي أحمد حسن الزيات عن شعر حسان في الإسلام:

فأحمد حسن الزيات نراه يقول عن شعر حسان في الإسلام ما نصه : ولكن كثيرا من شعره في هذا الطور كان خشيبا فكثر به السقط،وقلت فيه الجزالة ، وغلبت عليه السهولة، فرأى الأصمعي أن شعره لم يقو إلا في الشر فلما جاء الإسلام بالخير ضعف. [٢٠]

٢- رأى د.عمر فروخ عن شعر حسان في الإسلام:

د.عمر فروخ يردد الشيء نفسه فيقول: حسان بن ثابت كثير الشعر جيده وهو أشعر أهل المدر غير أنه كان في الجاهلية أشعر منه في الإسلام ثم يورد قول الأصمعي الذي رواه ابن قتيبة في كتابه " الشعر والشعراء"[٢١]

وربما كان مؤلفو المفصل في تاريخ الأدب العربي أكثر الباحثين تعليلا وإضافة في شعر حسان في الإسلام ، فهم وإن لم يبعدوا كثيرا عما قاله الأصمعي فقد أضافوا تعليلات أخرى حتى بلغوا بها خمسة :

أ- انبهار حسان بما قاله القرآن الكريم وما نطق به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ب- ضعف شعره في غير الهجاء للسبب نفسه الذي قال به الأصمعي في رواية ابن قتيبة

ج- ما علله حسان نفسه حين قيل له : لان شعرك أو هرم في الإسلام يا أبا الحسام ؟ فأجاب : إن الإسلام يحجز عن الكذب والشعر يزينه الكذب.

د- إن كثيرا من شعره قاله بعد أن بلغت منه السن ، والشعر صورة من صور النفس تسيح إذا ساحت.

هـ- إن كثيرا من شعره الإسلامي قاله ارتجالا عند حدوث الواقعة الداعية إليه[٢٢]

٣- على أن الباحث الذي تناول هذه القضية بشيء من التفصيل والجدة هو الدكتور عبد القادر القط فهو يأتي برأي جديد الذي لم يسبقه إليه أحد ، حين يقول: " إن ذلك الضعف الذي لاحظناه في الشعر الإسلامي قد بدأ قبل الإسلام لا بعده كان قد انقضى عصر الفحول، ولم يبق في الحقيقة منهم إلا الأعشى الذي مات قبل أن يعلن إسلامه، لبيد الذي بلغ الستين وأوشك أن يكف عن قول الشعر. ولم يبق عند ظهوره الإسلام إلا شعراء مقلون بعضهم مجيد في قصائد مفردة ولكنهم لا يبلغون شاؤ هؤلاء الفحول".[٢٣]

وأخيرا يختم حديثه بقوله : " والحق أن حسانا لا يمكن بحال أن يعد من هؤلاء الفحول فهو دونهم في الموهبة والمقدرة اللغوية وسعة التجربة وصدق الملاحظة، ولعلنا لو وضعناه في موضعه الصحيح بالنسبة إلى هؤلاء الشعراء نضع قضية ضعف شعره بعد الإسلام في موضعها الصحيح أيضا إذا ثبت لدينا أنه لم يكن في قمة من قمم الإبداع في الجاهلية ثم هوى عنها بعد الإسلام".[٢٤]

٤- ونحن نؤيد الدكتور القط فيما ذهب إليه في أن الشعراء المخضرمين لم يكونوا قادرين على إيجاد أسلوب جديد من الشعر يحسن التعبير عن القيم والمفاهيم الجديدة مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بالخصائص الفنية التي نمت وتطورت في ظل المجتمع الجاهلي المختلف في قيمه وقضاياه عن المجتمع الإسلامي الجديد. ولكننا نختلف معه في أن الشعر قد ضعف قبل الإسلام لا بعده،

ذلك لأن شعر الفحولة لم يكن مقصورا على أصحاب الطوال فقط أو العشر، ولكن شعرهم كان يمثل الفحولة بالمعنى الذي حدده القدماء، ومن هؤلاء من أدرك الإسلام وكان له شعر رصين فيه، فقد أدرك الإسلام كعب بن زهير والحطيئة وكلاهما شاعر مجيد فحل وضعهما ابن سلام في الطبقة الثانية من فحول الجاهلية. وأدركه أيضا النابغة الجعدي أول الطبقة الثالثة عند ابن سلام. [٢٥]

وهو مع ما في شعره من تفاوت لم يخرجه القدماء من أصحاب الجودة و الرصانة ، وقد ظل يقول الشعر الجيد إلى آخر أيامه. وقد ذكر ابن سلام نماذج كثيرة على جودة أشعارهم.وبناء على ما ذكرنا يصبح القول : بأن الشعر قد بدأ يضعف في الجاهلية قبل الإسلام قولا لا يقوم على شيء، وبعيد عن الحقيقة كثيرا، وخير منه قول الدكتور شوقي ضيف حيث يقول:" إن الشعر ظل مزدهرا بعد الإسلام، فليس بصحيح أنه قد توقف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين". [٢٦]

٥- وكذلك بعض الباحثين يرفض القول بضعف الشعر في صدر الإسلام ويرى : " إن نهضة الشعر قد استمرت بعد الإسلام إن لم يكن قد تقدمت خطوات بما هيأ لها الإسلام من أسباب التقدم والنهوض".[٢٧]وثمة أمر آخر نختلف فيه مع الدكتورعبد القادر القط حول رأيه في حسان بن ثابت الذي حاول أن يدعم به نظريته في ضعف الشعر قبل الإسلام. فقد ذهب ـ كما ذكرنا ـ إلى أن حسانا دون الفحول في الموهبة والقدرة اللغوية وسعة التجربة....."، وهو رأي غريب في حد ذاته، وغرابته تكمن في اختلاف الحكم الذي نستخلصه من القدماء عن حسان، وما ذهب إليه الدكتور القط في هذه الأقوال، فالقدماء لم ينظروا إلى حسان شاعرا بين فحول أهل البادية كما فعل الدكتور القط، وإنما نظروا إليه شاعرا بين شعراء القرى العربية في الجاهلية والإسلام، وابن سلام حين تكلم عن شعراء أهل القرى وهى : المدينة ، ومكة، والطائف ، واليمامة والبحران (البحرين) قال: إن أشهر هذه القرى قرية المدينة وإن شعراءها الفحول خمسة أشعرهم حسان بن ثابت. [٢٨]

ولا شك في أن الأصمعي حين حكم عليه ـ فيما قدمنا له من أقوال ـ بالفحولة لم يحكم عليه بالنظر إلى فحول أهل البادية وإنما حكم عليه بالنظر إلى هذا الاعتبار.

والدكتور شوقي ضيف يرد على الأصمعي بالأصمعي حين يقول: " والحق إن شعر حسان الإسلامي كثر فيه الوضع. وهذا هو السبب فيما يشيع بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة لا لأن شعره لان وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعي ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال ".[٢٩]

وهو تعليل قال به الأصمعي لينفي عن حسان الركاكة والإسفاف التي تبعده عن الفحول ولا ينفي عنه اللين في الأشعار ذات الصبغة الإسلامية الصحيحة النسبة إليه.

والثابت أن حسانا كان فحلا كما قال الأصمعي بل إن من الشعراء الإسلاميين من كان يراه فحلا حتى في الإسلام كما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف والدكتورسامي مكي العاني في كتابه الإسلام والشعروغيرهما من الباحثين . فهذا الفرزدق يفتخر بالفحول الذين أخذ عنهم الشعر في أبياته المشهورة المتداولة في كتب الأدب والتي يقول في أولها:

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا وأبو زيد وذو القروح وجرول

فقد قال فيها مشيرا إلى حسان وشعره في الإسلام :

وابنا أبي سلمى زهير وابنه وابن الفريعة حين جد المقول [٣٠]

فحسان شاعر فحل بالحق إذا نظر إليه كشاعر مدني لا بالموازنة مع فحول الشعراء من أهل البادية، وهذه المسحة المدنية التي لاحظها الدكتور القط في شعره الجاهلي إنما هى حقيقة يلمسها كل من يقرأ شعره، ولكنها لا تجعل شعره في الجاهلية شبيها بشعره في الإسلام. فشعره في الإسلام لايشبه شعره في الجاهلية إلا قصائد التي ينحو فيها منحى جاهليا.

ونحن نظلم حسان حين نوازنه بالفحول من شعراء البادية أصحاب الطوال أو غير الطوال، وإنما يجب أن نضعه موضعه بين شعراء القرى. وكذلك إننا نظلمه حين نقول عنه:" أنه لا يكاد يلم بتلك الموضوعات المقصودة في شعر كبار الشعراء الجاهليين من وصف للرحلة، ومظاهر الطبيعة، وأنواع الوحش والحيوان.."[٣١]

ونزداد ظلما على حسان حين نقرر في ضوء هذا الكلام حكما آخر يقول:" إن حسانا لا يمكن بأي حال أن يعد من هؤلاء الفحول فهو دونهم في الموهبة والقدرة اللغوية وسعة التجربة وصدق الملاحظة...." [٣٢]

ونحن نختلف مع الدكتور القط في هذه الأمور ولكننا نتفق معه في أن بعض شعر حسان قد ضعف في الإسلام شأننا في هذا شأن جل العلماء والباحثين، الذين قالوا بذلك وليس الضعف هنا ناتجا عن أن حسانا كان ضعيف الشعر في الجاهلية أو أن الشعر العربي قد بدأ يضعف قبل الإسلام، كما ذهب إليه الدكتور القط.

وبهذا الصدد يقول صاحب شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ما خلاصته: بقي القول على شعره في الإسلام وما قاله الأصمعي في ذلك، فالذي أراه أن شعر حسان في الإسلام لا يقل في جزالته عن شعره في الجاهلية. بيد أن هناك قوافي يمدح بها سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخرى يرثيه بها ليست في الحق قوية قوة سائر شعره، وقد قال الأصمعي في ذلك : تنسب إليه أشياء لاتصح عنه، وهذا فيما يظهر صحيح. وكثيرا ما رأيت في سيرة ابن هشام أبياتا لحسان من هذا القبيل يعقبها صاحب السيرة بقوله : وأهل العلم ينفيها عن حسان.....ومن هنا يفهم أن هذه الأشياء اللينة التي تنسب إليه غير صحيحة أصلا. وإذا صحت فإنه يسهل تعليل هذه الليونة بأشياء منها أولها: تأثير أسلوب القرآن ، ذلك الأسلوب الناصع البيان المطرد السياق، الواضح الطريقة المتساوق الأغراض السهل الممتنع، المشرق المونق المعجز الذي تراه كالشمس قريبا ضوءها بعيدا مكانها..... وثانيها : أن حسان شاعر مدني نشأ في المدينة ، وخالط آل جفنة، ثم جاء الإسلام فأسلم وخالطت بشاشة هذا الدين قلبه فكان لابد أن يلين جانبه وترق حاشيته، وتسلسل ملكته الفنية فيتجافى عن جفوة الأعراب وخشونة الجاهلية، وعن الغلو والإفراط والزخرف وما إلى ذلك من كل ما هو بسبيل من الكذب الذي يعنونه بقولهم أصدق الشعر أكذبه. وهذا ما كان من حسان في شعره بعد إسلامه، وهذا هو الذي يسميه الأصمعي وغير الأصمعي لينا ضعفا وما هو عند المعدلة بالضعف....[٣٣]

الخاتمة:

فقد وصلنا من خلال بحث و دراسة حياة هذا الشاعر العبقري الإسلامي إلى النتائج الآتية:

نشأ حسان في أسرة عريقة في الشعر والشاعرية حتى قال المبرد : أعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان، فإنهم يعتدون ستة في نسق كلهم شاعر. وأن الشعر جرى منه مجرى الدم.

اتفق الرواة والنقاد على أن حسان أشعر أهل المدر في عصره، وأنه أشعر اليمن قاطبة.

عاش حسان مائة وعشرين سنة ، ستون في الجاهلية وستون في الإسلام، فكان في الجاهلية شاعر أهل المدن. وفي البعثة شاعر النبوة، وفي الإسلام شاعر اليمانية. قال في المدح، والفخر، والحماسة، والهجاء، والغزل في الجاهلية، أما في الإسلام فاقتصر على المدح ، والهجاء، والفخر، والرثاء.

إن حسان فحل من فحول الشعراء، فهذه قضية لايتمارى فيها شاعر ولايختلف فيها إثنان. فمن أي النواحي أتيته وجدته شاعرا كسائر شعراء الجاهلية الفحول.

والقول بأن الشعر قد بدأ يضعف في الجاهلية قبل الإسلام قولا لايقوم على شيء وبيعد عن الحقيقة.

إن الشعر في صدر الإسلام لم يتوقف، وأن الشعراء لم يسكتوا عنه ولكن بعض شعرهم قد جاء ضعيفا، وخاصة عند الشعراء الذين واكبوا الإسلام في أحداثه الأولى.

اختلف الباحثون في قضية ضعف شعر حسان في الإسلام بين المؤيدين والمعارضين . فالذي أراه أن شعره في الإسلام لايقل في جزالته عن شعره في الجاهلية.

والحق إن شعر حسان الإسلامي كثر فيه الوضع. وهذا هو السبب فيما يشيع بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة لا لأن شعره لان و ضعف في الإسلام.

والقول: بأن بعض شعر حسان قد ضعف في الإسلام وليس الضعف هنا ناتجا عن أن حسانا كان ضعيف الشعر في الجاهلية أو أن الشعر العربي قد بدأ يضعف قبل الإسلام بل لأجل تأثره وانبهاره بالقرآن والحديث، وإن الإسلام يحجز عن الكذب، والشعر يزينه الكذب.

حسان شاعر مدني نشأ في المدينة، بعد ما أسلم خالطت بشاشة هذا الدين قلبه فكان لابد أن يلين جانبه وترق حاشيته ويتجافى عن جفوة الأعراب وخشونة الجاهلية وعن الغلو والإفراط والزخرف والكذب، هذا ما كان من حسان في شعره بعد إسلامه وهذا هو يسميه الأصمعي وغير الأصمعي لينا ضعفا وما هو في الحقيقة بالضعف.

وبحق سمي حسان شاعر الإسلام، وشاعر رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ فقد عاش يناضل عنه وعن أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب راميا لهم جميعا بسهام مصمية حتى جاور ربه رضى الله عنه وأرضاه.

المراجع والمصادر

١- البرقوقي. عبد الرحمن. *شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري*(بيروت: دار الأندلس. ط١. ١٩٧٨م) ص ١٩-٢٠.

٢- الزيات .أحمد حسن . *تاريخ الأدب العربي*. ط ٢٨. (بيروت: دار الثقافة د.ن) ص ١٦٦.

٣- المرجع السابق. *شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري*. ص٢١.

٤- ضيف. شوقي. *تاريخ الأدب العربي –العصر الإسلامي* – (مصر : دارالمعارف .١٩٦٣م) ج ٢ ص٧٧-٧٨ .

٥- المرجع السابق . ص ٧٨-٧٩.

٦- المرجع السابق.*تاريخ الأدب العربي*. ص.١٦٦

٧- المرجع السابق.*شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري*. ص ٢٩.

٨- المرجع السابق. ص ٢٩- ٣٠.

٩- أبو عمر. يوسف بن عبد البر. *الاستيعاب في أسماء الأصحاب*(مصر: مطبعة السعادة، ١٣٢٨ه) ص ٣٠.

١٠- المرجع السابق. *شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري*. ص ٣٠.

١١- المرجع السابق. ص ٣١.

١٢- المرجع السابق. ص٣٦٥-٣٦٦.

١٣- المرجع السابق. ص٦٢-٦٥.

١٤- المرجع السابق. ص١٥٣.

١٥- المرجع السابق، ص٩٦.

١٦- ابن قتيبة. *الشعر والشعراء*. (بيروت : دار الثقافة ط ٤، ١٩٨٠م) ص٢٢٤.

١٧- المرزباني. أبو عبيد الله محمد بن عمران.*معجم الشعراء* (القاهرة: مطبعة السلفية. ط٢. ١٣٨٥م) ص ٥٩.

١٨- ابن عبد البر. *الاستيعاب*. جـ١، ص٣٣٤.

١٩- ابن خلدون. عبد الرحمن. *تاريخ ابن خلدون*(القاهرة: دار الكتاب العربي د.ت) ص ١١٢٢.

٢٠- المرجع السابق. *تاريخ الأدب العربي*. ص ١٦٨.

٢١- فروخ. د.عمر. *تاريخ الأدب العربي*. جـ١(بيروت : دار العلم للملايين طـ٤. ١٩٨١م) ص ٣٢٦.

٢٢- الإسكندري وغيره. *الفصل في تاريخ الأدب العربي* (القاهرة: مكتبة الآداب. د.ن) ص ١٥٧.

٢٣- القط. د.عبد القادر. *في الشعر الإسلامي الأموي* (بيروت: دار النهضة العربية طـ ١٩٧٥م) ص ١٣.

٢٤- المرجع السابق. ص ٣٤.

٢٥- الجمحي. محمد بن سلام. *طبقات الشعراء*. تقديم يوسف هل (بيروت :دار الكتب العلمية طـ ١٩٨٢م) ص ٤٦.

٢٦- ضيف. د. شوقي. *تاريخ الأدب العربي*. العصر الإسلامي (مصر: دار المعارف. طـ ٨: ١٩٦٣م) ص٤٣.

٢٧- المكي. د.سامي العاني. *الإسلام والشعر*. (الكويت: ط عالم الكتب) ص ٢٠.

٢٨- المرجع السابق .*طبقات الشعراء* ص ٧٨.

٢٩- ضيف. شوقي .*تاريخ الأدب العربي*. العصر الإسلامي. ص٨١.

٣٠- جمال. محمد. *ديوان الفرزدق* (بيروت: المطبعة الوطنية. ط ١٩٣٣م)ص ٧٢٠.

٣١- المرجع السابق .*في الشعر الإسلامي الأموي* . ص٢٤.

٣٢- المرجع السابق . ص ٢٤.

٣٣- المرجع السابق .*شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري*. ص ٣١-٣٢.